"دور زمزم في المجتمع المكي في العصر الإسلامي دراسة تاريخية حضارية"

The role of Zamzam in the mecca society in the Islamic Era,a . cultural and Historical

هدى جبير السفياني

أستاذ مشارك، قسم التاريخ والآثار، جامعة أم القرى

ملخص البحث:

يتحدث البحث عن دور زمزم في المجتمع المكي بالعصر الإسلامي، من خلال تعايش أبناء مكة المكرمة مع هذا الأثر الإسلامي الخالد، وتوظيفه لفائدتهم في جميع مناحي الحياة: الاجتماعية والإدارية والاقتصادية والدينية والعلمية.

وقد تناول البحث محورين أساسيين: نشأة زمزم وعمارتها، مع ذكر أسمائها وفضائلها. ودور زمزم في المجتمع المكي من خلال النواحي: الاجتماعية والإدارية والاقتصادية والدينية والعلمية، وأختتمُ البحث بأهم النتائج التي توصَّل إليها، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الكلمات المفتاحية: زمزم - مكة – دور - مجتمع.

أولًا: موضوع الدراسة:

تعدّ بئر زمزم أثرًا معماريًّا إسلاميًّا خالدًا، اصطفاه الله ﷻ ماءً مباركًا في أشرف بقعة على المعمورة؛ وهي مكة المكرمة، التي شرّفها وعطرها بأن وضع فيها بيته المحرم، وجعله قبلة ومهوى لأفئدة العالمين، تهوي إليه ما بين حج وعمرة وزيارة، ملبية نداء ربها، وقد أمر سبحانه نبيه إبراهيم عليه السلام بعمارته؛ مصداقًا لقوله تعالى: (إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[1].

وذلك بعد أن أسكن به إسماعيل وأمه هاجر - عليهما السلام- فلما مكثا به أجرى الله على يديهما مَكْرُمة نبع ماء زمزم، وكانت بركة وسببًا لقيام الحياة بمكة بعد طول جدب؛ فأضحت هذه البئر أولى ثمرات دعوة الخليل عليه السلام وهو ما نصّت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[2].

ومنذ ذلك الحدث العظيم وزمزم لها الفضل والمكانة، وشرف السقيا لمن ولي أمرها والريادة، ولما جاء الإسلام؛ ازدادت أهميةً وفضلًا بما ورد في شأنها من أحاديث نبوية شريفة، فنالت عناية خاصة على مر العصور، وأصبح لها أهميتها الدينية والإدارية والاجتماعية والعلمية، وكانت الدول المُتعاقبة تتنافس في عمارتها وترميمها، وكثيرًا ما تحدّثت المصادر عن تاريخ زمزم وعمارتها، وكيف أنها أدّت دورًا دينيًّا ورياديًّا بمكة المكرمة طوال التاريخ، ولكنها لم تُسهب في حديثها عن دورها في المجتمع المكي ككل؛ إذ كان لها دور كبير لا يُستهان به.

ولذا تسلّط الدراسة الحالية الضوء على دور زمزم في المجتمع المكي خلال العصر الإسلامي، من حيث: النشأة، والعمارة، والأسماء، والفضائل، والدور الذي أدّته في الحياة بمكة، ودورها في المجتمع المكي على وجه الخصوص في جوانبه المختلفة: الاجتماعية والإدارية والاقتصادية والدينية والعلمية.

ثانيًا: أهمية الدراسة:

1- تستمد هذه الدراسة أهميتها من تناولها لأثر إسلامي له مكانته وأهميته، ففي حين ركّزت الدراسات السابقة على تناول تاريخ زمزم وعمارتها؛ لكن الدراسة الحالية تركّز على الدور الذي تؤديه في المجتمع المكي ككل؛ ليشمل جميع مناحي الحياة.
2- تندرج هذه الدراسة ضمن المحاولات العلمية المنظّمة؛ لإعطاء صورة عن مجتمع مدينة مكة المكرمة، وتعايشهم مع الآثار الدينية بها، وكيف أدّت هذه الآثار دورها من خلال توظيفها لخدمة هذا المجتمع: بيئيًّا وإداريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 127.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 37.

نشأة زمزم وعمارتها:

إنَّ أصحَّ ما رُوي عن نشأة زمزم، ما ذكره الإمام البخاري -رحمه الله- في صحيحه[1] عن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: أقبل إبراهيم بإسماعيل وأمه هاجر – عليهم السلام- وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[2].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء؛ عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى، أو قال: يتلبّط - أي يتمرّغ ويضرب بنفسه الأرض– فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحدًا فلم ترَ أحدًا، فهبطت من الصفا؛ حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثُمَّ سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس ﷺ: قال النبي ﷺ:" فذلك سعيُ الناس بينهما".

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صه - تريد نفسها – ثم تسمّعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: "يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم – أو قال: لو لم تغرف من الماء – لكانت زمزم عينًا معينًا".

قال: فشربت وأرضعت ولدها"[3].

وهكذا نجد أن انبثاق ماء زمزم المبارك كان على يد الملك جبريل عليه السلام بأمر الله له ﷻ ولأجل نبيه إسماعيل وأمه هاجر - عليهما السلام- وبسبب دعوة والده إبراهيم عليه السلام كان هذا الماء عينًا معينًا ومصدرًا لعمران مكة المكرمة والبيت العتيق قبل ذلك.

---

(1) ابن حجر: أحمد بن علي، فتح الباري على شرح صحيح البخاري، ط3، دار طيبة، كتاب الأنبياء، باب يزفون، 654/7-655.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 37.

(3) ابن حجر: فتح الباري، 663/7.

وقد توالت السنون على ماء زمزم وهي تسقي أهل مكة ومن حلّ بها من غير أهلها؛ إلى أن استخفَّت جرهم بحرمة الكعبة والحرم، فدُرس موضعها واندثر؛ فأصبح لا يُعرف.

وقيل: إنَّ جرهمًا دفنتها حين نُفيت من مكة[1]، ثم بوأه الله تعالى لعبد المطلب بن هاشم جدُّ النبي ﷺ لما خصّه الله من الكرامة، فأُتي في المنام وأمر بحفرها، وأُعلمت له بعلامات استبان بها موضع زمزم فحفرها[2].

أما زمان حفر عبد المطلب لزمزم، فإنه على أرجح الروايات وأصحها كان قبيل ولادة النبي ﷺ أي قبيل عام الفيل[3].

وهذا ما ذكره الفاسي في (شفاء الغرام) بقوله: "وكان حفره لها قبل مولد النبي ﷺ لأنا روينا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن جده عبد المطلب حين حفر زمزم لم يكن له ولد سوى ابنه الحارث، روينا ذلك عنه في سيرة ابن إسحاق بسند رجاله ثقات"[4]. وعلى هذا؛ فما ذكره الأزرقي عن الزهري أن حفر عبد المطلب لزمزم كان بعد عام الفيل، فهي رواية غير صحيحة[5].

أما موقع البئر، فهي شرقي الكعبة المشرفة بصحن المطاف[6] محاذية للملتزم[7]، وهو ما وصفه بها ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه (العقد الفريد) بقوله: "وزمزم بشرقي الركن الأسود، بينهما مثل ثلاثين ذراعًا"[8].

أما وصف البئر، فقد ذكره الأزرقي بقوله: كان ذرع زمزم من أعلاها إلى أسفلها ستين ذراعًا، وفي قعرها ثلاث عيونٍ: عين حذاء الركن الأسود، وعين حذاء أبي قبيس والصفا، وعين حذاء المروة ... فقال: أنا صليت في قعرها، فغورها من رأسها إلى الجبل أربعون ذراعًا، ذلك كله بنيان، وما بقي فهو جبل منقور، وهو تسعة وعشرون ذراعًا، وذرع حبك زمزم في السماء ذراعان وشبر، وذرع تدوير فم زمزم أحد عشر ذراعًا، وسعة فم زمزم ثلاثة أذرع، وثلثا ذراع"[9]. بينما يصفها

---

(1) الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبدالله: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ط6، تحقيق: رشدي الصالح، دار الثقافة، مكة، 1414هـ، 4/2، والفاكهي: أبو عبد الله محمد بن إسحاق، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ط1، تحقيق: عبدالملك بن دهيش، دار خضر، بيروت، 1998م، 9/2.

(2) الأزرقي: أخبار مكة، 42/2، والفاكهي: أخبار مكة، 14/2.

(3) سائد بكداش: فضل ماء زمزم وذكر تاريخه، ط5، دار البشائر، بيروت، 1421هـ، ص36.

(4) الفاسي: صفي الدين محمد بن أحمد: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط1، تحقيق: عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 398/1.

(5) المصدر نفسه، وينظر: الأزرقي: أخبار مكة، 42/2.

(6) لكن فتحة البئر الآن واقعة تحت سطح المطاف. انظر: يحيى كوشك: زمزم طعام طعم وشفاء سقم، ط1، دار العلم، جدة، 1403هـ، ص60.

(7) الملتزم: هو من الكعبة المشرفة ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة، وطوله أربعة أذرع متران تقريباً. الفاكهي: أخبار مكة، 230/2، الملتزم: مكان استجابة الدعوات، صحيفة عكاظ، 4/ذي الحجة/1434هـ، ع4476.

(8) ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد، ط1، تحقيق: عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1404هـ، 286/7.

(9) أخبار مكة، 61/2.

الفاسي بقوله: "ارتفاع فم زمزم عن الأرض، وسعته وتدويره، فكان ارتفاع فمها في السماء ذراعين إلا ربعًا، وسعته أربعة أذرع ونصف، وتدويره خمسة عشر ذراعًا إلا قيراطين؛ كل ذلك بذراع الحديد المُشار إليه"[1].

في حين وصفها الرحالة ابن جبير بقوله: "وتنور البئر المباركة في وسطها مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذي يُقابل البيت المُكرّم، وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذرعناه، وعمق الماء سبع قامات على ما يُذكر"[2].

هذا ما وصفه الأقدمون لبئر زمزم المباركة، مع عدم التطابق في الوصف فيما بينهم، ولعل مرد ذلك إلى اختلاف وسائل القياس في كل عصر، إضافة إلى طول الفترة الزمنية وما تخلّلها من تغييرات في بئر زمزم وعمارة وإصلاح وغيرها[3].

وقد نالت عمارة بئر زمزم عناية فائقة من قِبل الخلفاء والسلاطين والحكام على مرِّ العصور، فاهتموا بها وبترميمها، وأدخلوا عليها من التحسينات ما يليق بمكانتها، وتحدثنا المصادر المكية أن أول عمارة لبئر زمزم كانت في العهد الأموي، وتحديدًا في عهد الخليفة سليمان بن عبدالملك (ت 99هـ/717م)؛ إذ وضع سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس قبة على موضع مزمزم، بعد أن كانت مجرد بئر مُحاطة بسور من الحجارة بسيط البناء، ولها حوضان أحدهما للشرب، والآخر للوضوء[4]. للوضوء[4].

ثم شيّد قبتها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (ت958هـ/775م) في خلافته، وأحكمها وأضاف إليها شباكًا، وفرش أرضها بالرخام[5].

وكرّر الأمر ذاته الخليفة المهدي (ت 169هـ/785م)، حيث سقف حجرة زمزم بالسّاج، كما كُسيت القبة الصغيرة بالفسيفساء، وجُدّدت عمارة زمزم، وأقيم فوق حجرة الشراب قبة كبيرة من الساج، بدلًا من القبة الصغيرة التي كانت تعلو البئر[6]. واستمر هذا الاهتمام في عصر الخليفة المعتصم (ت 227هـ/842م)، حيث ذكر الأزرقي ما طال زمزم من عمارة في عهده بقوله: "سقف زمزم كلها بالساجّ المُذهب من داخلها، وجعل عليها من ظهرها الفسيفساء، وأشرع لها جناحًا صغيرًا كما يدور تربيعها، وجعل في الجناح كما يدور سلاسلُ فيها قناديل يستصبح فيها في الموسم، وجعل

---

(1) شفاء الغرام، 400.

(2) ابن جبير: محمد بن أحمد، (ت:614هـ)، رحلة ابن جبير، ط1، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ، ص71.

(3) حسين باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، ط4، مكتبة تهامة، جدة، ص176.

(4) الأزرقي: أخبار مكة، 60/2.

(5) الأزرقي: أخبار مكة 60/2، والفاكهي: أخبار مكة 75/2، وياقوت: ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ، 168/3.

(6) الأزرقي: أخبار مكة، 60/2، والفاكهي: أخبار مكة، 75/2.

على القبة التي بين زمزم وبين بيت الشراب الفسيفساء، وكانت قبل ذلك تُزوّق في كل موسم، عمل ذلك في سنة عشرين ومائتين"[1].

وفي عهد الخليفة الواثق بالله (ت232هـ/847م)، هُدمت جميع بناية زمزم، وأمر أن يُعمل بيت للشراب، ودار العجلة والبرك، وهو ما أورده الفاكهي بقوله: "هذا بناء صفة زمزم، وهو بيت الشراب، حتى هدمه عمر بن فرج الرخجي، حين أمره أمير المؤمنين الواثق بالله بعمارة بيت الشراب في سنة تسع وعشرين ومائتين، فبناه بحجارة بيض منقوشة ... وبنى أعلاه بآجر، وألبسه رخامًا، وجعل له لواء عليها تشابيك من حديد وأبواب، وجعله مكنسًا، وجعل فوق الكنيسة ثلاث قباب صغارًا، وألبس ذلك كله الفسيفساء، وجعل في بطنها حوضًا كبيرًا من الساج، وفي بطن الحوض حوض من أدم يُنبذ فيه الشراب للحاج أيام الموسم"[2].

ثم توالت الإصلاحات والتحسينات المعمارية على بئر زمزم، فكانت سنة (256هـ/869م)، حيث أمر الخليفة المعتمد على الله العباسي بإصلاح الحجرة والأحواض، وأعدّ بركة يصبّ فيها الماء، فيفرغ فيها في جرار ليبرد، ثم يُسقى منه الحجاج في كيزان، وجعل لها بابين: يمانيًّا للدخول، وشاميًّا للخروج[3]، واستمر بناؤها على هذه الصفة حتى سنة (350هـ/961م)، فُهدم ذلك البناء وبُني على أعمدة مفتحة من جوانبها الأربعة، وسقفها بالخشب المُذهّب، وتُركت البركة على بنائها الأصلي، وبقيت على هذه الصفة إلى سنة (373هـ/983م)[4].

ولما حجّ بالناس جعفر بن علي العباسي سقف قبة السقاية؛ لسقوطها وانهدامها من حجر النور، واستمر ذلك البناء إلى سنة (430هـ/1038م)، فانهدم فبُنيت على صفة بيت مربع، وجُعل لها بابان، شرقي وغربي، وقد استمر هذا البناء إلى سنة (520هـ/ 1126م)، حيث جُدّدت مرة أخرى[5].
أخرى[5].

ومع مطلع القرن السادس الهجري جدّد الوزير محمد بن علي المعروف بالجواد الأصفهاني (ت 559هـ/1164م) [6] قبة زمزم وبناها من الخشب[7]، وقد وصف الرحالة ابن جبير، الذي زار مكة في الفترة نفسها قبة زمزم، وذكر أنها تُقابل الركن اليماني، وبينهما أربع وعشرون خطوة، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع، وتليها قبة الشراب، وهي المنسوبة إلى العباس ﵁ كما ذكر أن هذا البناء كان في غاية الإحكام، وقد حُفّت به أعمدة كان عددها اثنين وثلاثين عمودًا، وبُنيت داخل

([1]) أخبار مكة، 2/61-62، وينظر: ابن فهد: إتحاف الورى، 2/29.

([2]) أخبار مكة، 2/85، وينظر: ابن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، 2/298.

([3]) الفاكهي: أخبار مكة، 2/81.

([4]) الغازي: عبدالله بن محمد: إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام، ط1، تحقيق: عبدالملك بن دهيش، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، 1430هـ، 1/625.

([5]) المصدر نفسه، 1/626.

([6]) الجواد الأصفهاني: محمد بن علي بن أبي منصور، الوزير جمال الدين، المعروف بالجواد لجوده وكثرة إحسانه. الفاسي: العقد الثمين، 2/212.

([7]) ابن فهد: إتحاف الورى، 3/443.

القبة سقاية سعتها شبر، وعمقها نحو شبرين، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار، تملأ ماء الوضوء، وحُفّت بها مصطبة يقف الناس عليها للوضوء[1].

ثم حدث بعد ذلك عدة تجديدات لزمزم وبنائها، منها:

عمارة الملك المظفر (ت 658هـ/1260م)، ثم السلطان قلاوون (ت 689هـ/1290م)، كما جُدّدت بنايتها سنة (720هـ/1320م) [2].

وممن عاصر هذه الإصلاحات من عمارة زمزم، الرحالة التجيبي (ت 730هـ/1329م)، الذي ذكر أن قبة زمزم كبيرة مبنية على أعمدة عظيمة، وأن السقاية الواقعة داخل القبة لها مجارٍ مُغطّاة بالحجارة؛ ليُكشف عنها عند الاحتياج إلى إصلاحها، حيث شاهد ذلك بنفسه، كما أوضح أن لقبة زمزم درجًا مصنوعة من الخشب، تُفضي إلى أعلاها تُقابل باب الصفا، يصعد منها المؤذنون إلى سطحها للأذان[3].

وفي سنة (807هـ/1404م) جُدّدت سقاية العباس ﷺ لسقوط القبة التي كانت عليها، وكانت من خشب فبُنيت من الحجر، وسُدّ باب الخلوة التي إلى جانب زمزم، وجُعل في مكانها بركة للوضوء، وفوق هذه البركة خلوة بها شبابيك، أحدها إلى الكعبة، والآخر إلى الصفا[4].

وقد أطنب الفاسي في وصف عمارة زمزم سنة (822هـ/1419م)، حيث ذكر أنها طالت ظلة المؤذنين التي فوق زمزم فهُدمت كلها، وجعل فوق البئر شباكًا من حديد، كما بُنيت له خمسة أعمدة من الآجر، تحمل سقفًا من خشب جُعل ظلة للمؤذنين. وكانت قبة زمزم دورين، وكان للبناء درج من الخشب مخروطي الشكل بجانب ظلة المؤذنين[5].

ومما وصف به ماء زمزم في عصره قوله: "وزمزم الآن في بيت مربع في جدرانه تسعة أحواض، يُملأ من زمزم المتوضئ منها، وأعلا البيت مسقوف، ما خلا الموضع الذي يُحاذي البئر"[6].

ثم استمر الاهتمام ببناء وعمارة زمزم مثلما حدث في عهد السلطان قايتباي سنة (874هـ/1469م)، ثم في سنة (894هـ/1488م)، وهو ما ذكره ابن فهد في (بلوغ القرى)، بأن

---

(1) رحلة ابن جبير، ص ص70-71.

(2) الفاسي: العقد الثمين، 93/1، والغازي: إفادة الأنام، 626/1، ومحمد الحارثي: سقاية العباس مأثرة بني هاشم، ط1، 1434هـ، ص56.

(3) التجيبي: القاسم بن يونس، برنامج التجيبي، ط1، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية، تونس، 1395هـ، 303.

(4) ابن فهد: إتحاف الورى، 443/3.

(5) الفاسي: العقد الثمين، 90/1-91.

(6) المصدر نفسه: 90/1.

زمزم أصبحت تعلوها قبة شاهقة عظيمة، وجعلت قبة السقاية ذات شكل مثمّن بعد أن كانت مربعة"[1].

ومن خلال التتبع الزمني لعمارة زمزم؛ يتبيّن ما حظيت به من اهتمام، خاصة في العصر العباسي، الذي شهد شغفًا ملموسًا من خلفائه تجاه عمارة زمزم، لا سيما وقد أُنيطت بهم مهمة السقاية من عهد جدهم العباس بن عبد المطلب ﷺ.

أسماؤها وفضائلها:

زمزم:

هو اسم عَلَم للبئر المباركة، وقد أوردت المصادر أسماءٌ كثيرة لزمزم، مع تفنيد معنى كل اسم ودلالته واتصاله بها، وبحسب ما نقله ابن منظور في معجمه أنها اثنى عشر اسمًا: "زمزم، ومكتومة، ومضنونة، وشباعة، وسقيا الرواء، وركضة جبريل، وهزمة جبريل، وشفاء سقم، وطعام طعم، وحفيرة عبد المطلب"[2].

وذكر ياقوت في معجمه عدة أسماء لها، منها: "زمزم، وزُمم، وزُمزم، وزمازم، وركضة جبرائيل، وهزمة جبرائيل، وهزمة الملك، والهزمة، والركضة، بمعنى، وهو المنخفض من الأرض، والغمزة بالعقب في الأرض يُقال لها: هزمة، وهي سقيا الله لإسماعيل عليه السلام والشباعة، وشباعة، وبرة، ومضنونة، وتكتم، وشفاء سقم، وطعام طعم، وشراب الأبرار، وطعام الأبرار، وطيبة"[3].

وقد جاء في (شفاء الغرام) أن لزمزم أسماء كثيرة عدّد منها الفاسي ستة وعشرين اسمًا، مضافة مع أحد عشر اسمًا، تفرّد بها عن سابقيه[4] . وعلى كل؛ فإن كثرة الأسماء مما يدلّ على عِظم المُسمّى ورفعته وفضله؛ وذلك للعناية به وبشأنه، كما قال الشاعر:

واعلم بأن كثرة الأسامي دلالة أن المسمّى سامي[5] .

ولزمزم فضائل عظيمة مروية عن المصطفى ﷺ وهي خير ماء على وجه الأرض، وعين من عيون الجنة، وأولى الثمرات التي أعطاها الله لخليله إبراهيم عليه السلام حين دعا بقوله: (ﮗ ﮘ ﮙ)[6]. وهي شفاء من كل داء، كما جاء في الحديث: "خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام الطعم، وشفاء السقم". ويكفي ماء زمزم فضلًا أنه أُختير لغسل قلب المصطفى ﷺ أكثر من مرة، ولم يكن

---

(1) العز بن فهد بن عبد العزيز بن عمر المكي: بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، دار القاهرة، 2005م، ط1، مجموعة محققين، 232/2.

(2) ابن منظور: جمال الدين أحمد بن مكرم: لسان العرب، ط.د، دار ضياء، بيروت، 274/12.

(3) ياقوت: معجم البلدان، 168/3.

(4) الفاسي: شفاء الغرام ، 404/1.

(5) بكداش: فضل زمزم، ص63.

(6) سورة إبراهيم، آية رقم: 37.

ليُغسل قلبه الشريف - صلوات ربي وسلامه عليه- إلا بأفضل المياه، حيث شقّ صدره ﷺ أربع مرات، وفي كل مرة يُغسل بماء زمزم، كما ثبت في الصحيحين"[1].

وزمزم ماءٌ بارك فيه رسول الله ﷺ بريقه الشريف، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: جاء النبي ﷺ إلى زمزم، ففرغنا له دلوًا، فشرب، ثم مجّ فيها، ثم أفرغناها في زمزم، ثم قال: "لولا أن تغلبوا عليها؛ لنزعت بيدي"[2].

وبهذا نعلم أن بركة ريقه الشريف ﷺ قد دخلت على بركة زمزم، فازداد ماء زمزم بركة على بركته، ولذة على لذته، وشفاءً على شفاءه، ونورًا على نوره، وطهرًا على طهر بمجّه ﷺ في دلو قد أُهريق فيه[3].

دور زمزم في الحياة بمكة:

أجمع المؤرخون[4] على أن ماء زمزم أساس الحياة بمكة المكرمة، وسبب أولي لعمارتها، ومن ثمّ عمارة البيت الحرام؛ فقد كان بطن مكة ليس فيه ماء، ولم يكن لأحد به قرار؛ حتى انبثق ماء زمزم المبارك، وهذا ما حكاه الفاكهي بقوله:

"كان بطن مكة ليس فيه ماء، وليس لأحد فيه قرار؛ حتى أنبط الله تعالى لإسماعيل عليه السلام زمزم، فعمرت مكة يومئذٍ وسكنها من أجل الماء قبيلة من اليمن يُقال لهم: جرهم، ولولا الماء الذي أنبطه الله تعالى لإسماعيل عليه السلام لما أراد من عمارة بيته، لم يكن لأحد بها يومئذٍ مقام"[5].

وعن استقرار قبيلة جرهم بمكة يذكر الأزرقي: "مرَّ ركب من جرهم قافلين من اليمن في الطريق السفلى، فرأى الركب الطير على الماء، فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادي من ماء ولا أنيس، يقول ابن عباس: فأرسلوا جريين لهم حتى أتيا أم إسماعيل، فكلماها، ثم رجعا إلى ركبهما فأخبراهم بمكانها، فرجع الركب كلهم حتى حيوّها، فردّت عليهم، وقالوا: لمن هذا الماء؟ قالت أم إسماعيل: هو لي، قالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل معك عليه؟ قالت: نعم، قال ابن عباس: قال أبو القاسم ﷺ:" ألفى ذلك أم إسماعيل وقد أحبت الإنس"، فنزلوا وبعثوا إلى أهليهم فقدموا إليهم، وسكنوا تحت الدوح"[6].

ومن خلال هذا الوصف؛ يتضح أن الحافز الأول لاستقرار القبائل بمكة المكرمة وجود ماء زمزم بها، ولأن هذا الماء طعام طعم؛ فقد كان سببًا للحياة بمكة، حيث جعله الله تعالى غذاء لأم إسماعيل وابنها، عليهما السلام.

([1]) البخاري: الصحيح، كتاب الصلاة، 291/1، ومسلم: صحيح مسلم، 148/1.

([2]) الأزرقي: أخبار مكة، 55/1.

([3]) بكداش: فضل زمزم، ص98.

([4]) الأزرقي: أخبار مكة، 40/1، والفاكهي: أخبار مكة، 2/9-10، وابن هشام: السيرة النبوية، صححه: ناجي سويد، ط1، شركة الأرقم، 1/69-70.

([5]) أخبار مكة، 9/2.

([6]) الأزرقي: أخبار مكة، 39/1.

ويروى عن أم أيمن - رضي الله عنها- حاضنة رسول الله ﷺ ومولاته قالت: "ما رأيت النبي ﷺ شكا – صغيرًا ولا كبيرًا – جوعًا ولا عطشًا، كان يغدو فيشرب من ماء زمزم، فأعرض عليه الغداء فيقول: لا أريده، أنا شبعان"[1].

وليس أدلَّ على دور وفضل ماء زمزم على وجود الحياة من حديث الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه إذ حلّ بمكة وبقي بها ثلاثين يومًا وليس له طعام ولا شراب إلا زمزم، فلما لقيه النبي ﷺ عند الكعبة فسأله، "من أنت؟" فقال له: إنه من بني غفار، وقال: مذ كم أنت هاهنا؟ قال له: من بضعة عشر يومًا، فقال له ﷺ: "فما كان طعامك"؟ قال له أبو ذر: ما كان لي طعامٌ إلا ماء زمزم، وقد تعكّن بطني كما ترى، قال له ﷺ: "إنها طعام طعم، وشفاء سقم"[2] الحديث.

وروى الأزرقي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: "تنافس الناس في زمزم في الجاهلية؛ حتى إن كان أهل العيال يغدون بعيالهم، فيشربون منها فتكون صبوحًا لهم، وكنا نعدّها عونًا على العيال"[3].

وهذه الميزة العظيمة لزمزم؛ هي التي جذبت الكثير من الهجرات السكانية إلى مكة المكرمة في مختلف العصور؛ إذ إنها أذهبت عنهم هم المؤونة، فتكفيهم زمزم عن ذلك كله، فقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- أنه قال: "شاهدت من يتغذّى به – ماء زمزم – الأيام ذوات العدد قريبًا من نصف الشهر أو أكثر ولا يجد جوعًا، ويطوف مع الناس كأحدهم، وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يومًا"[4].

ولأجل ماء زمزم عمرت مكة المكرمة بعد أن كانت أرضًا جدباء غير ذات زرع، وهو ما قاله إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)[5]، فلما ظهرت زمزم بدأ الناس يتوافدون إلى مكة، بدءًا بقبيلة جرهم التي استوطنت بها، وتزوّج منهم إسماعيل عليه السلام وأنجب أبناءه؛ فأصبحوا قبائل بعد أجيال متعاقبة، إضافة إلى الوافدين عليها من كل فجٍّ وصوب.

دور زمزم في المجتمع المكي :

كان لزمزم دور كبير في المجتمع المكي طوال التاريخ الإسلامي، فمنذ أن انبثق هذا الماء نجد أنَّه أدّى دوره في الحياة الاجتماعية بمكة المكرمة؛ إذ توافدت الهجرات السكانية إليها، وبدأت تستقر بها لتكّون بذلك بيئة اجتماعية تناسلت وكوّنت قبائل مكة المعروفة، كقبيلة قريش وغيرها[6].

---

(1) بكداش: فضل زمزم، ص64.

(2) الأزرقي: أخبار مكة، 53/1، وابن حجر: فتح الباري، 178/8.

(3) أخبار مكة، 51/1-52.

(4) ابن القيم: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ط1، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 319/4-320.

(5) سورة إبراهيم، آية رقم:37.

(6) الأزرقي: أخبار مكة، 39/1، والفاكهي: أخبار مكة، 9/2.

ولما جاء الإسلام ودخل المصطفى ﷺ مكة المكرمة في السنة الثامنة للهجرة فاتحًا، أقرّ وظيفة السقاية التي كانت لعمه العباس رضي الله عنه على ما كانت عليه[1]. وكانت وظيفة متوارثة من عهد قصي جد النبي ﷺ إذ كان يسقي الماء بفناء الكعبة في حياض من أدم ممزوج بالتمر والزبيب، فيشرب منه الحجاج ومن ورد مكة. وما لبثت هذه الوظيفة أن أصبحت لأولاد قصي من بعده يتوارثونها؛ حتى أصبحت لعبد المطلب بن هاشم، وهو الذي أحيا بئر زمزم فكان منها شرب الناس. وبعد وفاته انتقلت إلى ابنه أبي طالب، الذي تركها[2] لأخيه العباس؛ فأصبحت في ذريته طوال العهد الإسلامي[3].

وقد كان لهذه الوظيفة الشريفة منزلة ومكانة لا تُمسّ، فمنذ عهد العباس رضي الله عنه الذي طلب من النبي ﷺ أن يبقيه على السقاية، بعد أن قبضها منه، فقام ﷺ بين عضادتي باب الكعبة فقال: "ألا كل دم أو مال أو مأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي هاتين، إلا سقاية الحاج وسدنة الكعبة، فإني قد أقضيتها لأهلها على ما كانت عليه في الجاهلية"[4]، فقبضها العباس رضي الله عنه فكانت في يده وفي ذريته من بعده لا يُنازعهم فيها منازع[5].

ولخصوصية هذه الوظيفة على آل العباس - رضي الله عنهم- فإن المصطفى ﷺ رفض أن يباشر سقاية نفسه من زمزم في حجة الوداع؛ حتى لا يقتدي به الناس ويظنّون أنها سنة مُتبعة فتنزع السقاية من أهلها؛ بل سقى له العباس رضي الله عنه وناوله دلوًا من زمزم فشرب - صلوات ربي وسلامه عليه- واستحسن فعله هذا وقال:" انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على السقاية؛ لنزعت معكم"[6].

وكان أهل السقاية يسقون على زمزم فيغرفون بالدلاء، ويصبّون في الحِياض ونحوها، ويسبلونه للناس، لا سيما في أيام الحج؛ إذ إن من عادتهم أن يستعدوا بالسقاية لكل من أفاض من الحجاج، فيسقونه زمزم لتمكّن العطش منه بعد الطواف[7].

ولَكَم تفانى آل العباس في وظيفة السقاية، فكانوا يباشرونها بأنفسهم؛ حتى إن العباس رضي الله عنه استأذن النبي ﷺ في ليالي منى أن يبيت بمكة لأجل السقاية، فأذن له دون غيره من الناس[8]، واستمرت هذه الوظيفة في العهد الأموي لبني العباس؛ إذ يُروى أن الخليفة معاوية رضي الله عنه أراد أن يسقي

([1]) الأزرقي: أخبار مكة، 40/1، وفيصل محمد: زمزم والزمازمة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، 1415هـ، ص61.

([2]) انتقلت السقاية من أبي طالب إلى العباس رضي الله عنه بعد أن استدان أبو طالب من أبي العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم القادم فصرفها، ثم جاء الموسم ولم يكن معه شيء، فطلب منه مرة أخرى أربعة عشر ألفًا إلى الموسم القادم، فاشترط عليه العباس إذا جاء الموسم ولم يقضه أن يترك السقاية له، فلما جاء الموسم ولم يقضه ترك السقاية له. الأزرقي: أخبار مكة 109/1-115، والفاكهي: أخبار مكة، 11/2-12.

([3]) الأزرقي: أخبار مكة، 109/1-115، والفاكهي: أخبار مكة، 11/2-70.

([4]) ابن حجر: أحمد بن علي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، 15/8.

([5]) الأزرقي: أخبار مكة، 110/1.

([6]) الأزرقي: أخبار مكة، 55/1.

([7]) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، 15/8.

([8]) الأزرقي: أخبار مكة، 58/1.

في دار الندوة[1] فأرسل إليه عبد الله بن عباس ﷺ أن ليس ذلك لك، فقال: صدق، فسقى حينئذٍ بالمحصب[2]، ثم رجع فسقى بعد بمنى[3].

ومنذ أن أصبحت الخلافة في البيت العباسي – أهل السقاية – زاد الاهتمام بها، وكرّس خلفاؤهم كل جهدهم وأموالهم للعناية بزمزم وعمارتها – كما ذكرنا سابقًا – ولكن نتيجة انشغالهم بأعباء الملك، أنابوا عنهم في أمر السقاية أسرة آل الزبير[4] المتولين التوقيت بالحرم، وما لبثت هذه الأسرة أن أصبحت مسؤولة عن السقاية كليًّا، بعد أخذهم منشور خاص من الخليفة العباسي؛ ولكن نتيجة كثرة الواردين من حجاج وزوّار بيت الله العتيق؛ فقد أشركوا معهم آخرين للعمل عُرفوا بعد ذلك بالزمازمة؛ نسبة إلى وظيفة السقاية المرتبطة بزمزم[5].

وما لبثت هذه الوظيفة الشريفة أن قُنِّنت وحُدِّدت مهامها، فأصبح لهؤلاء الزمازمة رئيس يُسمّى بـ(شيخ الزمازمة)، مهمته الإشراف على أعمال السقاية وتوزيعها، ولا بد أن يكون له باعٌ طويل في ممارسة المهنة ومعرفة بجميع جوانبها. ومع مرور الوقت أصبحت وظيفة السقاية محصورة في أسرة واحدة عُرفت بلقب (الزمزمي)، يتوارثونها جيلًا بعد جيل[6].

وبحسب المصادر المكية؛ فإن أول ذكر لوظيفة السقاية بوصفها وظيفة خدمية لأسرة الزمزمي كان عام (730هـ/1232م)، الذي عُرف بعام الفيل[7]؛ إذ قدم إلى مكة رجلٌ يُدعى علي بن محمد البيضاوي[8]، وهو الذي لُقّب فيما بعد بـ(الزمزمي)، وعمل لدى الشيخ سالم بن ياقوت المؤذن[9] بقبة

([1]) دار الندوة: هي دار بناها قصي بن كلاب، وجعل بابها إلى الكعبة، وهي أول دار بنيت بمكة، وكانت مقرًّا لإدارة شؤون أهلها. عدنان الحارثي: دار الندوة في الجاهلية والإسلام: دراسة تاريخية حضارية، مجلة الدارة، ع3، السنة 31، 1426هـ، ص ص13-37.

([2]) المحصب: اسم مفعول من الحصباء أو الحصب، وهو الرمي بالحصى، وهي صغار الحصى وكباره، وهو موضع فيما بين مكة ومنى، وهو إلى منى أقرب. ياقوت: معجم البلدان، 74/5.

([3]) الأزرقي: أخبار مكة، 60/1، والفاكهي: أخبار مكة، 46/2.

([4]) آل الزبير: تُنسب هذه الأسرة إلى الزبير بن العوام ﷺ ثم ما لبثوا أن تسمّوا بالزمزمي؛ نسبة إلى سقاية زمزم، وفي العصر الحديث عُرفوا ببيت الريس؛ لأن عددًا منهم تولوا رئاسة المؤذنين بالمسجد الحرام. با سلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص182، وطاهر الكردي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ط1، تحقيق: عبدالملك بن دهيش، دار خضر، بيروت، 1420هـ، 139/4.

([5]) الغازي: إفادة الأنام، 620/1، ليلى عبد المجيد: التنظيمات الإدارية والمالية في مكة في العصر المملوكي، ط.د، مؤسسة الفرقان، 1431هـ، ص282.

([6]) ليلى عبد المجيد: التنظيمات الإدارية، ص283.

([7]) سُمّى هذا العام بعام الفيل؛ لأنه وصل إلى مكة المحمل العراقي على فيل، فتشاءم الناس وقالوا: هذا عام الفيل، ثم حدثت فتنة بمكة قُتل فيها الفيل وكثيرٌ من الأمراء. ابن فهد: إتحاف الورى، 192/3.

([8]) علي بن محمد البيضاوي المعروف بالزمزمي، نزيل مكة، قدم إليها عام الفيل، وسكنها إلى وفاته سنة (785هـ/1383م). ابن فهد: إتحاف الورى، 192/3، والفاسي: العقد الثمين، 30/6.

([9]) سالم بن ياقوت المكي أبو أحمد المؤذن بالحرم الشريف، (ت 760ه/1358م). الفاسي: العقد الثمين، 491/4.

بقبة زمزم، فلما ظهر له خيره، نزل له عنها، وزوّجه ابنته، فولدت منه أولادًا، وصار لهم أمر السقاية في المسجد الحرام، وعُرفوا بالزمازمة أو ببيت الزمزمي[1].

ولأهمية وظيفة السقاية في البيت المكي، فقد حرص القائمون بها على توارثها في الأسرة الواحدة؛ حتى لا تخرج عنهم، بل كثيرًا ما حدثت النزاعات حول مشيخة هذه الوظيفة؛ لدرجة أن السلطان الحاكم كان يتدخّل لفضّ هذا النزاع، كما ذكرت المصادر[2].

وكان يصدر مرسوم خاصّ من الخليفة العباسي فيمن يتولى مشيخة السقاية، مثلما حدث في سنة (901هـ/1495م)، حين وصل إلى مكة علي بن عبد العزيز الزمزمي شيخ السقاية ومعه مرسوم من الخليفة العباسي المتوكل باستقلاله هو وجماعته بهذه الوظيفة دون غيرهم[3].

ومما يدلّ على مدى السمعة والثقة الواسعة والمكانة المرموقة التي اكتسبها متولو وظيفة السقاية - سواء على مستوى المجتمع في مكة المكرمة، أو لدى الحكّام والسلاطين- أنه كان يُسند إليهم وظيفة الأذان في بعض الأحيان، مثلما حدث سنة (894هـ/ 1488م)، عندما مُنع رئيس المؤذنين أبو عبد الله وولده من مباشرة الأذان، وأُمر الزمازمة به بدلًا عنهم؛ بل إنَّ بعض أفراد أسرة الزمازمة كان يتولى أكثر من وظيفة إلى جانب عمله في السقاية[4].

وفي الأحوال كلها، فقد أكسب وجود زمزم مكانة عظيمة لمن تولى وظيفتها منذ القدم، وأصبح هؤلاء يتلقّبون بها؛ لإضفاء مزيد من الشرف والمكانة لخدمتهم في جنبات البيت العتيق، ولسقيا ماء زمزم المبارك؛ بل إنَّ بركة وجودها لم تقتصر على المنزلة الاجتماعية لدى من وُكّل بسقايتها، وإنما شملت الناحية الاقتصادية أيضًا، حيث كان من المُتعارف عليه أن يبعث كثير من المسلمين صدقاتهم وهباتهم إلى أطهر بقعة وهي مكة المكرمة، وكان المسؤولون عن أمر زمزم وسقياها يحظون بأوفر نصيب من هذه العطايا، مثلما حدث سنة (901هـ/1495م)، عندما وصلت إلى مكة المكرمة صدقات العثمانيين؛ فأُعطي منها متولو زمزم[5]. ومثلما حصل في سنة (719هـ/1319م) [6]، عندما حجّ الملك الناصر قلاوون، فأفاض في التشاريف على أمراء مكة وأرباب الوظائف بها[7].

وبالمحصلة؛ فإنَّ أهمية الماء للناس كافة، ولأهل مكة خاصة، وضرورة توفيره - لا سيما إذا كان ماءً مباركًا كزمزم- جعل أيدي الحكام تجود على من يتكفّل بذلك، فها هو الأشرف شعبان يُعيّن مجموعة من السقائين لسقي الطائفين بالبيت الحرام وخارجه، ويجزل في أعطياتهم - كل حسب عمله

([1]) الغازي: إفادة الأنام، 620/1.

([2]) العز بن فهد: بلوغ القرى، 748/2، والغازي: إفادة الأنام، 621/1.

([3]) العز بن فهد: بلوغ القرى، 942/3، والغازي: إفادة الأنام، 621/1.

([4]) العز بن فهد: بلوغ القرى، 942/3، والغازي: إفادة الأنام، 621/1.

([5]) العز بن فهد: غاية القرى، 82/2.

([6]) إتحاف الورى: 483.

([7]) الفاسي: العقد الثمين، 262/2.

وجهده- ومقابل ثمن الأدوات التي كانوا يستخدمونها في استخراج الماء أو نقله أو حمله[1]. وبحسب هذه الوثيقة التي تعطي نظرة عن دور وجود زمزم في المجتمع المكي، حيث تشعبّت من خلالها مهام وظيفة السقاية؛ لتشمل عددًا لا بأس به من أبناء مكة المكرمة، الذين كفلت لهم هذه الوثيقة مصدر رزق عن طريق سقيا زمزم، ومن هذه المهن:

1- سقاء بئر زمزم، ومهمته سقي الماء من البئر إلى سائر الناس، وحُدّد ما يُصرف له بثلاثمائة وستين درهمًا سنويًّا، بواقع ثلاثين درهمًا شهريًّا، كما حُدّد ما يُصرف له من مصالح البئر كثمن الدلاء وسلب وبكر وغيرها مائتي درهم سنويًّا؛ فيكون مجموع ما يكون مُخصّصًا لبئر زمزم وسقائها خمسمائة وستين درهمًا سنويًّا[2].
2- سقاء الحرم: وقد رتّبت الوثيقة اثنين من السقائين يسقيان الماء في الحرم المكي، ووُزّعت العمل بينهما، فأحدهما يعمل بالنهار، والآخر بالليل، كما حدّدت مكان عملهما فيما بين المقام الشريف والكعبة المشرّفة يسقيان الطائفين بالكعبة وغيرها، وقرّرت لهما عن ثمن الماء وأجر الماعون أجرتهما ألف وخمسمائة درهم سنويًّا، بواقع سبعمائة درهم لكل سقّاء منهم، وهو أجر كبير إذا قيس بسقاء بئر زمزم، الذي خُصّص له هو ومصالحه خمسمائة وستين درهمًا[3].

وما ورد في هذه الوثيقة التاريخية يعطي صورة من صور الثراء الذي حظي به أبناء مكة المكرمة، ممن كانوا يعملون في وظيفة السقاية، كما أنه يدلّ على أن الاهتمام ببئر زمزم؛ أدّى إلى الازدهار الكبير في الصناعات الحِرفية التي تطلّبتها عملية سقي الحجيج وغيرهم، كصناعة الأواني المُخصّصة للسقي، أو التي يُستخرج بها الماء من البئر، مثلما هو معروف عن الدوارق، وهي الجِرار الفخارية التي كانت منتشرة صناعتها بمكة المكرمة[4]، أو تلك القِرب التي كانت من الجلود، وكانت تُجلب من مدينة الطائف، كما أن صناعتها أُشتهرت بمكة أيضًا[5]. وقد وصف ابن جبير هذه الدوارق في رحلته بقوله: "ويخرج مع الليل لسقي الحاج في قلال يسمّونها الدوارق، كل دورق منها ذو مقبض واحد"[6].

هذا بالإضافة إلى الحبال التي يُستعان بها في عملية إخراج الماء من البئر، وكثيرًا ما كانت تُجلب بواسطة القبائل القادمة إلى مكة، مثلما ذكر الصباح في رحلته: "حبالهم من حلفة المسد، يسوقونها إلى مكة للآبار والدلو، ولخروج الماء من الآبار"[7].

وعلى كل، فإن من أراد أن يستقي بنفسه من زمزم من الوافدين للحرم لا يرد أبدًا؛ بل يُترك له مطلق الحرية في الاستقاء بنفسه، دون أخذ أجرٍ منه؛ بل كان مكان السقاية مجهزًا بأحسن جهاز،

(1) راشد القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف على الحرمين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1414هـ، ص103.
(2) المرجع نفسه، 104.
(3) المرجع نفسه، 105.
(4) ابن جبير: الرحلة، ص71، وابن بطوطة: الرحلة، 151/1.
(5) الفاكهي: أخبار مكة، 342/3.
(6) الرحلة، ص71.
(7) عبدالهادي التازي: رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان، 1426هـ، 174/1.

وكانت أواني الشرب تنظّف وتُجمّر ومن ثمّ تُرصّ، وبجانبها كيزان للشرب عُرفت باسم المغاريف[1].

بيد أن هناك فئة من أفراد المجتمع المكي كانوا يتجرون بماء زمزم خارج المسجد الحرام، وهو مما أجازه الفقهاء؛ إذ أفتوا أن من ملك شيئًا من ماء زمزم بالأخذ والحيازة؛ كان له بيعه وهديته ونحو ذلك، والتصرّف فيه كتصرّفه في أي نوع من المياه والكلأ ونحوها من المباحات إذا ملكها الإنسان[2].

أما بيع زمزم في موضعه: أي والماء في البئر، بأن يقول للمشتري مثلًا: أبيعك دلوًا من هذه الماء الذي في البئر؛ فلا يجوز له ذلك؛ لأنه لمَّا يصبح بعدُ في حوزته[3].

والمتاجرة التي كانت منتشرة لدى أهل مكة بزمزم، هي من النوع المباح، حيث كانت تدرّ على الفقراء منهم مصدر رزق لا بأس به، فكانوا يملؤون جرارَ زمزم ويوصّلونها إلى منازل الموسرين من أهل مكة، لا سيما في شهر رمضان المبارك؛ ليفطر أهل البيت وجيرانهم على ماء زمزم، كما كان من العادة أن يقوم أي فرد من أفراد المجتمع المكي أو من الحجاج بدفع ثمن جرة زمزم، ويطلب من الزمزمي توزيعها على عامة الناس بوصفها عملًا خيريًّا وصدقة عنه أو عن من يحبّ[4].

وكان لزمزم دور في استمرار عادة حُسن الضيافة والكرم للمجتمع المكي؛ إذ إن أبناء مكة كانوا مشهورين بذلك، حتى حفلت بوصفهم كتب الرحلات[5]؛ بل قد زادت مكانة زمزم ومكانها لديهم من إبراز هذه الصفة الحميدة؛ إذ كان ماء زمزم لديهم من أفضل التحف والقِرى، فقد أورد الفاكهي عن مجاهد قال: "كان ابن عباس -رضي الله عنهما- إذا نزل به ضيف أتحفه من ماء زمزم"[6].

وليس أدلّ على حسن الضيافة بماء زمزم لمن حلّ بالبيت العتيق، أنه كان يُمزج بالزبيب الطائفي ليعذب طعمه ويُقدّم للحجّاج والزوّار، وهذه العادة الحميدة كانت منذ عهد عبد المطلب جد النبي ﷺ إذ كان يشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحجّاج، فلما قام بأمر السقاية من بعده ابنه العباس رضي الله عنه كان يحمل الزبيب من الطائف؛ إذ كان يملك بستانًا بها، كما كان يُداين أهل الطائف ويقتضي منهم الزبيب، وينبذ ذلك كله ويسقيه الحاج أيام الموسم حتى تنقضي[7].

واستمرت هذه العادة في اصطناع المعروف في أمر نبيذ السقاية عند عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- إذ ورد عن المصطفى ﷺ أنه شرب من هذا النبيذ واستحسنه، ثم لما كانت بيد علي

---

(1) عواطف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1417هـ، ص210.

(2) بكداش: فضل زمزم، ص229.

(3) المرجع نفسه، ص230.

(4) كريستيان سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، دارة الملك عبدالعزيز، 1419هـ/2/232-233.

(5) ابن بطوطة: تحفة النظار، 1/161-162.

(6) أخبار مكة، 2/46.

(7) الأزرقي: أخبار مكة، 1/114.

بن عبد الله بن العباس فعل مثلما فعل أبوه وجدّه، يأتيه الزبيب من ماله بالطائف وينبذه في ماء زمزم[1].

وهكذا نرى كيف كان دور زمزم وبركتها على المجتمع المكي، وكيف أن هذا الدور شمل مناحي الحياة المختلفة؛ فظهرت لدى أبناء مكة المكرمة عادات مختلفة تختصّ بزمزم، منها ما كان اقتداءً بسنة المصطفى ﷺ أو فعل أصحابه وسلف الأمة من بعده، ومنها ما استحدثه بعضهم، وكان بدعة ما أنزل الله بها من سلطان.

فمن أهم العادات المندوبة التي حافظ عليها أهل مكة ومن أتي إلى زمزم: آداب الشرب من مائها وكيفيته، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: "إنه رأى رجلًا يشرب من ماء زمزم، فقال: هل تدري كيف تشرب من ماء زمزم؟ قال: وكيف أشرب من ماء زمزم يا أبا عباس؟ فقال: إذا أردت أن تشرب من ماء زمزم فانزع دلوًا منها، ثم استقبل القبلة، وقل: بسم الله، وتنفسّ ثلاثًا حتى تضلّع، وقل: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاءً من كل داء"[2].

وكل هذه الآداب من استحضار النية، واستقبال القبلة، والتضلّع بماء زمزم؛ أصبحت معروفة لدى أهل مكة ومن حلّ بها، فكانوا يكثرون الشرب من ماء زمزم، لا سيما في أيام الصيام، كشهر رمضان المبارك وغيره؛ بل إن بعضهم كان لا يشرب ولا يتوضأ إلا به، فهذا التابعي الجليل وهب بن منبه (ت 114هـ/723م) كان إذا دخل مكة، فلا يشرب ولا يتوضأ إلا بزمزم[3].

وممن ذُكر عنه الحرص الشديد على الوضوء بماء زمزم، الفقيه عبد الله بن أحمد الحضرمي المكي الشافعي (ت 952هـ/1519م)، فقد بقي بمكة ثلاثًا وخمسين سنة لم يتوضأ إلا من ماء زمزم[4].

ولم يقتصر الأمر في حرص المكيين على الشرب من ماء زمزم بمكة المكرمة؛ بل بلغ بهم الشغف أن يحملوه معهم حيثما رحلوا، فهذا الإمام القاضي تقي الدين بن فهد الهاشمي المكي (ت 871هـ/1466م) ورد في ترجمته، أنه كان شديد الحرص على الشرب من ماء زمزم، بحيث يحمله معه إذا خرج من مكة غالبًا[5].

وكثيرًا ما استحضر زائرو زمزم المباركة نواياهم بالدعاء والطلب لقضاء الحاجات، فكان لهم ما أرادوا؛ إذ إنها مظان الدعاء والإجابة، فهذا الإمام الحافظ المقرئ محمد بن الجزري (ت 833هـ/1429م)، ذكر أن والده أخبره أنه حج سنة (748هـ/1347م)، وشرب من ماء زمزم بنية

---

(1) الحارثي: سقاية الحاج، ص76.

(2) الفاكهي: أخبار مكة، 42/2.

(3) الفاكهي: أخبار مكة، 44/2.

(4) بكداش: فضل زمزم، ص201.

(5) السخاوي: شمس الدين ابن محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط1، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1412هـ، 283/9.

أن يرزقه الله ولدًا ذكرًا يكون من أهل القرآن؛ فكان له ذلك إذ أنجب في سنة (751هـ/1350م) هذا العالم الجليل[1].

وقد عشق أبناء مكة المكرمة زمزم في حياتهم وبعد مماتهم، فكان من العادات المتبعة أن يُغسّل موتاهم بماء زمزم؛ تبركًا، فقد رُوي عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها- أنها غسّلت ابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه بماء زمزم، حيث وضع لها مركن فيه ماء زمزم وشب يماني[2]، واستمرت هذه العادة فيما بعد؛ إذ يقول الفاكهي: "إن أهل مكة على هذا إلى يومنا يُغسّلون موتاهم بماء زمزم، إذا فرغوا من غسل الميت وتنظيفه؛ جعلوا آخر غسله بماء زمزم؛ تبركًا به"[3].

كما ذكر ابن الصباح عن إقبال بعض الحجاج على شراء أكفانهم التي يبلّلونها بماء زمزم، محتفظين بها إلى وقت الحاجة، وهي ظاهرة لا نزال نشهدها إلى اليوم[4].

وبلغ التبرّك بماء زمزم أن الكعبة المُشرّفة لا تُغسل إلا به، فمنذ أول غسل للكعبة المُشرّفة عندما دخل المصطفى ﷺ مكة فاتحًا سنة (8هـ)، حيث غسلها النبي ﷺ وأصحابه الكرام بماء زمزم ظاهرها وباطنها، وطهّروها من كل آثار الشرك، ثم أصبحت سُنّة متبعة إلى يومنا هذا، فلا تُغسل الكعبة إلا بماء زمزم ممزوجًا بأنواع الطيب، كالورد ونحوه[5].

وفي الأحوال كلها، فقد حفلت كتب الرحلات بوصف شيّق لغسل الكعبة المشرّفة، وحدّدت أنها تُغسل بماء زمزم، وها هو ابن جبير يذكر في رحلته أن غسل الكعبة يتم على يد سدنتها بماء زمزم المبارك، وأن كثيرًا من الموجودين بالمسجد الحرام يتبادرون إلى غسل أيديهم ووجوههم عند انسياب الماء من الميزاب، وربما جمعوا منه في أوانٍ قد أعدّوها لذلك تبركًا[6].

وفي الجانب الآخر، فقد كان لأهل مكة بعض العادات التي كانوا يمارسونها عند زمزم لم يرد بها نص أو سُنّة، كعادة ليلة النصف من شعبان؛ إذ وصف الرحالة ابن جبير هذه العادة بقوله: "وفي يوم الجمعة الثاني من ذلك اليوم – يعني ليلة الخامس عشر من شعبان – أصبح بالحرم أمر عجيب، وذلك أنه لم يبق بمكة صبي إلا وصبحه واجتمعوا كلهم في قبة زمزم، وينادون بلسان واحد: هلّلوا وكبروا يا عباد الله ، فيهلّل الناس ويكبرون، وربما دخل معهم من عرض العامة من ينادى معهم بندائهم، والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة؛ لأنهم يزعمون بل يقطعون قطعًا جهليًّا لا قطعًا عقليًّا أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان"[7].

---

(1) بكداش: فضل زمزم، ص140.

(2) الفاكهي: أخبار مكة، 48/2.

(3) نفس المصدر والصفحة .

(4) التازي: رحلة الرحلات، 173/1.

(5) الفاكهي: أخبار مكة، 221/5، والفاسي: شفاء الغرام، 212/1.

(6) ابن جبير: الرحلة، ص111.

(7) المصدر نفسه، ص112.

ولم يقتصر دور زمزم على المجتمع المكي بمائها فقط؛ ولكنه امتد إلى بنيان زمزم نفسه؛ إذ عرفت بنايتها باسم (قبة زمزم) في كافة المصادر، وهي القبة التي اهتم ببنائها الخلفاء والحكام، وحصل لها عدة تغييرات - كما ذكرنا سابقًا- وكانت هذه القبة تؤدي عدة وظائف إلى جانب وظيفتها لبئر زمزم، حيث عدّت هذه القبة مكانًا مهمًّا ومتميزًا بالمسجد الحرام، فكان رئيس المؤذنين - الذي يستفتح الأذان، ومن ثمّ يقتدي به مؤذنو المنائر الأخرى- يرفع الأذان من أعلى قبة زمزم، وزوّد مكانه بمزولة الوقت، التي كان موضعها فوق القبة أيضًا[1].

وبعد ظهور المقامات في المسجد الحرام، التي كانت تتبّع المذاهب الأربعة، وكان المذهب الشافعي المُقدّم بها عن بقية المذاهب؛ لأنه يعدّ مذهب الدولة العباسية آنذاك، فخُصّص له أهم موقع بالحرم المكي، وهو قبة زمزم، حيث كان إمام هذا المقام يصلي بالناس فيه، وكان يسبق المذاهب الأخرى، سواء في الأذان عن طريق رئيس المؤذنين، أو في إقامة الصلاة[2]، وهذا ما عناه ابن بطوطة بقوله: "فمن عادتهم أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية، وهو المُقدَّم من قِبل أولي الأمر"[3].

ومن أعلى قبة زمزم ظهرت عدة وظائف وعادات مكية سطرها التاريخ، منها:

- أن رئيس المؤذنين كان يدعو للخليفة العباسي من على قبة زمزم، إضافة إلى دعائه للسلطان، وصاحب اليمن، وشريف مكة، سواء في المناسبات كشهر رمضان، أو عند زيارة أحدهم الحرم بالحج أو العمرة أو غيرها. فقد دُعي للسلطان طغتكين عند دخوله مكة وطوافه بالبيت في قبة زمزم سنة 579هـ[4].
- وإضافة إلى ذلك، كانت قبة زمزم مكانًا لبثّ أبرز الأحداث وإعلام الناس بها، كتولي مسؤول أو وفاته أو عزله، فقد قُرئ مرسوم بتولي السيد عجلان، ودُعي له من على القبة سنة (746هـ)، كما دُعي بعودة الشريف بركات بن محمد للحكم سنة (903هـ/1497م). وفي سنة (907ه/1501م) نادى رئيس المؤذنين بالصلاة على السيد الشريف هزاع بن محمد بن بركات[5].

وبما أن قبة زمزم كانت تحوي مزولة الوقت، وبأعلى سطحها يتبوأ رئيس المؤذنين مكانه؛ فقد كانت مكانًا أيضًا للإعلام بدخول الشهر والمواسم المباركة، كرمضان والعيد ووقت السحور لشهر رمضان المبارك عن طريق رئيس المؤذنين. وقد ذكر ابن جبير ذلك بقوله: "والمؤذن الزمزمي يتولى التسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد؛ بسبب قربها من دار الأمير، فيقوم في وقت السحور فيها داعيًا ومذكرًا ومحرّضًا على السحور، ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه"[6].

---

(1) الفاسي: العقد الثمين، 165/2.

(2) العز بن فهد: بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، 69/2-70، وسنوك: صفحات من تاريخ مكة، 87/1.

(3) تحفة النظار، 172/1.

(4) ابن فهد : إتحاف الورى، 546/2.

(5) ابن فهد: إتحاف الورى، 230/3، والعز بن فهد: بلوغ القرى، 117/3.

(6) الرحلة، ص116.

ومن أعلى هذه القبة المباركة شارك رئيس المؤذنين أيضًا أبناء مكة فرحة إتمام الشهر الفضيل ودخول عيد الفطر المبارك، فكان يصعد إلى سطح القبة رافعًا صوته بالتكبير والتسبيح والتحميد[1].

ومن ضمن الأدوار الجلية الواضحة لزمزم في المجتمع المكي منذ صدر الإسلام، دورها العلمي على كثيرٍ منهم، أو ممن حلّ مكة زائرًا أو مجاورًا بها، ومن أوائل العلماء الأفذاذ الذين ظهرت بركة علمهم في جنبات زمزم، الصحابي الجليل عبد الله بن عباس ﷺ فقد روى الدار قطني عن ابن عباس أنه كان إذا شرب من ماء زمزم قال: "اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء"[2]. وقد ظهرت بركة هذه الدعوات، فوُصف ابن عباس ﷺ بأنه حبر الأمة علمًا وفهمًا وفقهًا، وأضحت حلقته بالمسجد الحرام موئلًا لطلاب العلم، يأخذون عنه من كل علم، كالتفسير والحديث وغيره.

وقد أثبتت المصادر أن موضع مجلس ابن عباس ﷺ كان بقبة زمزم، وهو مكان سقاية الناس، وهذا ما صرّح به غير واحد من محدثي مكة ومؤرخيها وغيرها، كالفاكهي الذي ذكر أن مجلس ابن عباس ﷺ كان موضع سقايته [3]، وهو ما وافقه عليه الفاسي بقوله: "وفي موضع هذه الخلوة كان مجلس عبدالله بن عباس، رضي الله عنهما"[4].

ومما يثبت ذلك بالفعل، ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن الحكم بن الأعرج[5] قال: "انتهيت إلى ابن عباس –رضي الله عنهما - وهو متوسّد رداءه عند زمزم، فقلت له: أخبرني عن صوم عاشوراء، فقال: "إذا رأيت هلال المحرم فأعدد، وأصبح يوم التاسع صائمًا، قلت: هكذا كان رسول الله ﷺ يصومه؟ قال: نعم"[6].

وهذه الرواية تدلّ دلالة قطعية على أن ابن عباس -رضي الله عنهما- كان يتدارس العلم ويجيب السائلين وهو في موضعه بزمزم، وأن جُلَّ حلقاته العلمية - إن لم تكن كلها- كانت عند مجلسه هذا، الذي ما لبث أن تحوّل مع مرور الوقت إلى مدرسة لمختلف العلوم، ذاع صيتها وطبقت شهرتها الآفاق، وأخرجت جهابذة العلماء كمجاهد بن جبر (ت 103هـ-721م)[7]، الذي كان ملازمًا لمجلس ابن عباس، فأخذ عنه القرآن والتفسير والفقه، يقول عن نفسه: "عرضتُ القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة"[8]. وما لبث الإمام مجاهد أن تصدّر للتدريس في مجلس ابن عباس؛ حتى ذاع صيته وبلغت

---

(1) المصدر نفسه، ص124.

(2) الدار قطني: السنن، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، 354/3.

(3) أخبار مكة، 69/2.

(4) العقد الثمين، 92/1.

(5) الحكم بن عبد الله بن إسحاق الأعرج الثقفي البصري (ت 101هـ)، ابن سعد: الطبقات الكبرى، بيروت، ط1 (1990م)، دار الكتب العلمية، 159/7.

(6) مسلم: شرح النووي، رقم الحديث 1133، وأخرجه الترمذي في سننه، 119/2.

(7) انظر لترجمته: ابن سعد: الطبقات الكبرى، 19/6، والذهبي: السير، 450/4، وابن عساكر: تاريخ دمشق، 28/57.

(8) ابن سعد: الطبقات الكبرى، 19/6.

شهرته الآفاق، قال عنه الثوري[1]: "خذوا التفسير من أربعة"[2]، وذكر في مقدمتهم (مجاهد)، وذكر عنه أبو زرعة الرازي[3] أنه: "مكي ثقة" [4]، وقد استمر في عطائه للعلم بمكة حتى وفاته بها وهو ساجد[5].

ومنهم أبو عبد الله عكرمة البربري (ت 105هـ/723م) [6] مولى ابن عباس -رضي الله عنهما- كان أعلم تلامذته بالتفسير، بالإضافة إلى أخذه عنه علم الحديث والسير والمغازي وغيرها؛ حتى بزّ أقرانه فيها، ونال إعجاب ابن عباس ﵄ فكان دائم الثناء عليه، وقد ذكره ابن حبان[7] في الثقات، وقال عنه: "من علماء زمانه بالفقه والقرآن"[8]. أما عطاء بن رباح (ت 114هـ/732م) [9] فكان مفتي أهل مكة المفضّل، ومحدّثها المبرز بعد ابن عباس، وقد أورد ابن كثير -رحمه الله- عن الطبراني وغيره أن: "الحلقة في المسجد الحرام كانت لابن عباس"[10] ومن تلامذته من بعده، وفي مقدمتهم عطاء بن رباح[11].

واستمرت مدرسة ابن عباس -رضي الله عنهما- في عطائها لتستقطب نجباء زمانهم من طلاب العلم من كل مكان، كالإمام الشافعي (ت204/820م) صاحب المذهب المعروف، وهو واحد من تلاميذ سفيان بن عيينة (ت 198هـ/813م)[12]، أحد علماء مدرسة ابن عباس المشهورين، وكان يجلس للحديث بها، فقد روى أبو بكر الدينوري في كتابه (المجالسة) عن الحميدي قال: " كنا عند سفيان بن عيينة، فحدثنا بحديث ماء زمزم لما شُرب له، فقام رجل من المجلس ثم عاد، فقال يا أبا محمد، أليس الحديث الذي حدثتنا به في زمزم صحيحًا؟ قال: نعم، قال الرجل: فإني شربت الآن دلوًا من زمزم على أنك تحدّثني بمئة حديث، فقال له سفيان: أقعد فقعد، فحدّثه بمئة حديث"[13].

---

(1) الثوري: سفيان بن سعيد (ت 161هـ)، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 163/9، والذهبي: السير، 229/7.

(2) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 28/57.

(3) أبو زرعة الرازي (ت 264هـ)، الخطيب: تاريخ بغداد، 326/10، والذهبي: السير، 65/13.

(4) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 32/57.

(5) ابن سعد: الطبقات الكبرى، 20/6.

(6) الذهبي: السير، 13/5، والسيوطي: طبقات الحفاظ، 107.

(7) ابن حبان: محمد بن حبان البستي (ت 354هـ)، الذهبي: السير، 92/16، وابن عساكر تاريخ دمشق، 253/52.

(8) الذهبي: السير، 16/5.

(9) ابن سعد: الطبقات، 20/6، وابن عساكر: تاريخ دمشق، 366/40.

(10) ابن كثير: البداية والنهاية، 244/9.

(11) الذهبي: السير، 78/5؛

(12) الذهبي: السير، 455/8.

(13) أبو بكر الدينوري: المجالسة وجواهر العلم، دار ابن حزم، تحقيق: مشهور آل سلمان، 385/2.

أما الإمام طاووس بن كيسان (ت 106هـ/724م)، فقد عُدّ من كبار التابعين، وكان من الملازمين لمجلس ابن عباس ﷺ حتى أصبح من خواصه ومن المقرّبين إليه، وقد تأثر بمنهجه كثيرًا - لا سيما في الحديث والتفسير- وأصبح من أكثر تلاميذ ابن عباس حفظًا للمأثور عنه[1].

وقد واصل مجلس ابن عباس ﷺ دوره العلمي عند زمزم بعد وفاته بقرون، فها هو التجيبي يذكر في رحلته عن العالم عماد الدين أبو محمد المكي المعروف بابن الطبري (ت701هـ /1301م)[2]، الذي كان يدّرس خلف قبة الشراب، وكان مجلسه معروفًا قرب مجلس ابن عباس ﷺ عند هذه القبة، وهذا ما ذكره التجيبي، حيث سمع منه صحيح الإمام مسلم - رحمه الله- كاملًا في عدة مجالس بقوله: "سمعت جميعه كاملًا من أوله إلى آخره بحرم الله الشريف خلف قبة الشراب على الشيخ الفقيه الصالح الزاهد العابد المخبت عماد الدين أبي محمد وأبي الحسن بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي المكي، المعروف بابن الطبري"[3] .

وقد نُسب إلى زمزم ولُقّب بها كثير من العلماء من أهل مكة وغيرهم؛ بسبب اتصالهم بماء زمزم من سقايتها أو القيام بشؤونها، ومنهم: العلامة عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز الزمزمي (ت 976هـ/1568م)، المحدّث الفقيه، الشاعر، ومن آثاره: الفتاوى الزمزمية[4] .

أما إبراهيم بن محمد الزمزمي (ق13ه/19م) المكي المولد والدار، فتصدّى للتدريس والإفتاء بالمسجد الحرام إلى وفاته[5].

ومن أجمل ما يُذكر عن دور زمزم في الناحية العلمية وبركتها، أن الإمام ابن خزيمة - رحمه الله- سُئل: من أين أوتيت هذا العلم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: "ماء زمزم لما شُرب له"، وإني لما شربت ماء زمزم وسألت الله علمًا نافعًا"[6].

ولا يفوتنا في هذه العجالة أن نشيد بدور قبة زمزم؛ حيث كانت النواة الأولى لمكتبة الحرم المكي الشريف؛ إذ خصّص الخليفة المهدي عند تجديده لبنائها مكانًا لحفظ المصاحف، ويبدو أن هذا المكان استمر في تأدية دوره كخزانة لحفظ المصاحف والمخطوطات، فقد جاء في كتاب (تاريخ مكة)

---

(1) ابن سعد: الطبقات، 66/6، والذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، تحقيق: بشار عواد، ط1، دار الغرب، 2003م ، 65/3.

(2) عبد الرحمن بن محمد الطبري أبو الحسن مفتي مكة وعالمها، ويُلقّب بالعماد الشافعي الفاسي: العقد الثمين، 403/5.

(3) برنامج التجيبي، 84.

(4) نجم الدين محمد الغزي (ت 1601م): الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ط1، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت،1977م، ج149/3.

(5) عبد الرزاق الدمشقي (ت 1335ه): حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ط2، تحقيق: محمد الدمشقي، بيروت، دار صادر،1993م،33/1.

(6) السبكي: تاج الدين عبدالوهاب بن تقي الدين (ت771هـ): ط2، تحقيق: محمد الطناحي وعبدالفتاح الحلو، دار هجر، 74/3.

للأزرقي: "أن سيلًا دخل الحرم المكي عام (417هـ/1026م)، ووصل إلى خزائن الكتب التي عند زمزم وأتلف الكثير منها"[1].

وهذا ما وصفه ابن جبير في رحلته، حيث أورد أن قبتي زمزم كانتا تُستخدمان لخزن أوقاف الحرم من مصاحف وكتب وغيرها[2]. وهو ما وافقه عليه ابن بطوطة، الذي ذكر أن قبة الشراب بها: "اختزان المصاحف الشريفة، والكتب التي للحرم الشريف، وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع، فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت ﵁ منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم تسليمًا[3]".

وامتدت هذه المكتبة في عطائها بقبة زمزم إلى القرن الثامن الهجري، وتحديدًا سنة (738هـ/1337م)؛ إذ أورد ابن فهد في (إتحاف الورى) أن سيلًا عظيمًا دخل الحرم حتى وصل إلى زمزم وقبتها، "وابتلت المصاحف والختمة العثمانية، والمغربية والرباع، وسلمت الختمة التكرورية، وما أخرج المصاحف من القبة إلا العوّامون"[4].

ويماثله سيل سنة 901هـ/1496م، حيث ذكر العز بن فهد أن مكة تعرّضت لسيل عظيم دخل المسجد الحرام، ودخل القبب وأتلف بعض المصاحف، ومنها صحيح البخاري، الذي كان في ثلاثين جزءًا[5].

---

(1) الأزرقي: تاريخ مكة، 100/2.

(2) الرحلة، ص71.

(3) تحفة النظار،151/1.

(4) ابن فهد: إتحاف الوري، 212/3-213.

(5) بلوغ القرى،921/2.

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد..

فقد توصّلت الباحثة إلى عدة نتائج كالآتي :

- كان للخلفاء والأمراء والسلاطين والولاة اهتمام كبير بزمزم وعمارتها؛ ومن ثمّ توظيف كافة شرائح المجتمع للاهتمام بها؛ الأمر الذي تمخَّض عنه نشوء واستحداث وظائف خاصة بهذا الأثر الإسلامي الخالد.
- كان لبركة العلم ودراسته عند زمزم لون خاص، فالحلقات التي عُقدت عند ماء زمزم وسقايتها؛ هي أولى حلقات العلم الرائدة التي أخرجت جهابذة العلماء في كافة التخصّصات، لا سيما والشرب من ماء زمزم بنية العلم وحفظه له أثر عظيم في ذلك .
- أنَّ نبع ماء زمزم بمكة المكرمة وهي وادٍ غير ذي زرع من أعظم النعم التي أعطاها الله سبحانه لهذه البلدة الطيبة، فالماء هو أساس الحياة ومع وجوده وُجدت الحياة بها واجتمع الناس ودبَّ العمران بمكة .
- بيَّنت الدراسة أنَّ ماء زمزم وبئرها من أهم آثار مكة المكرمة التي يزورها الناس سواءً من أهل مكة أو مَن حلَّ بها من الحجاج والمعتمرين ، فقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في فضلها وفضل مائها .
- من أهم العادات المتبعة منذ القدم إهداء ماء زمزم وكانت الأمثلة كثيرة على ذلك، وهذه العادة موجودة إلى وقتنا الحاضر مع توفر الماء الآخر، كما أنها تعتبر قربة وضيافة لمن حلَّ على أهل مكة .

المصادر والمراجع

- (1434هـ، 4 ذو الحجة). الملتزم: مكان استجابة الدعوات. صحيفة عكاظ، (4476).
- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله. (1414هـ). أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق: رشدي الصالح، (ط6)، دار الثقافة، مكة.
- أبوعبدالله محمد اللوابي (ت779هـ/1377م) : رحلة ابن بطوطة، دار بيروت، 1405هـ-1985م.
- بكداش، سائد. (1421هـ). فضل ماء زمزم وذكر تاريخه. (ط5)، دار البشائر.
- التازي، عبد الهادي. (1426هـ). رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة. مؤسسة الفرقان.
- التجيبي، القاسم بن يونس. (1395هـ). برنامج التجيبي. تحقيق: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية.
- سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة (ت279هـ/1978م)، سنن الترمذي، ط2،مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
- ابن جبير، محمد بن أحمد. (1424ه). رحلة ابن جبير. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية.
- الحارثي، عدنان. (1426هـ). دار الندوة في الجاهلية والإسلام: دراسة تاريخية حضارية. مجلة الدارة، 31(3).
- الحارثي، محمد. (1434هـ). سقاية العباس مأثرة بني هاشم.
- ابن حجر، أحمد بن علي. (د.ت). فتح الباري على شرح صحيح البخاري. (ط3)، دار طيبة.
- حسين باسلامة. (). تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك. (ط4)، مكتبة تهامة.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله. (ت:626هـ/1228م). معجم البلدان. ت: فريد الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الخطيب البغدادي: أبوبكر أحمد بن علي، (ت:463هـ/1070م): تاريخ بغداد، المدينة المنورة.
- الدار قطني: أبوالحسن علي بن عمر (ت:385هـ) ، السنن. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون. مؤسسة الرسالة، بيروت، 1424هـ-2004م.

- الدمشقي، عبد الرزاق. (1993م). حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. تحقيق: محمد الدمشقي، ط2، دار صادر.
- الدينوري، أبو بكر. ( ). المجالسة وجواهر العلم. تحقيق: مشهور آل سلمان، دار ابن حزم.
- الذهبي، (2003م). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان. تحقيق: بشار عواد، دار الغرب.
- السبكي، تاج الدين عبدالوهاب بن تقي الدين. (ت:771هـ/1369م). تحقيق: محمد الطناحي وعبدالفتاح الحلو، ط2، دار هجر.
- السخاوي، شمس الدين بن محمد. (1412هـ). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. دار مكتبة الحياة.
- ابن سعد، .(1990م). الطبقات الكبرى. دار الكتب العلمية.
- سنوك، كريستيان. (1419هـ). صفحات من تاريخ مكة المكرمة. دارة الملك عبدالعزيز.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي. (1404هـ). العقد الفريد. تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية.
- عبد المجيد، ليلى. (1431هـ). التنظيمات الإدارية والمالية في مكة في العصر المملوكي. مؤسسة الفرقان.
- ابن عساكر، أبوالقاسم علي بن الحسن (ت:571هـ/1175م)، تاريخ دمشق، بيروت-1399م، الكتاب العربي.
- الغازي، عبد الله بن محمد. (1430هـ). إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام. تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة الأسدي.
- الغزي، نجم الدين محمد. (1977م). الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة. تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية.
- الفاسي، صفي الدين محمد بن أحمد. (د.ت). شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. تحقيق: عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي.
- الفاكهي، أبو عبد الله محمد بن إسحاق. (1998م). أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه. تحقيق: عبد الملك بن دهيش، دار خضر.
- القحطاني، راشد. (1414هـ). أوقاف السلطان الأشرف على الحرمين. مكتبة الملك فهد الوطنية.

- ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. (د.ت). زاد المعاد في هدي خير العباد. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.
- ابن كثير، إسماعيل بن كثير (ت:774هـ/1372م) ، البداية والنهاية 1980م، ط:1،دار الكتاب، بيروت.
- الكردي، طاهر. (1420هـ). التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم. تحقيق: عبد الملك بن دهيش، دار خضر.
- كوشك، يحيى. (1403هـ). زمزم طعام طعم وشفاء سقم. دار العلم.
- محمد، فيصل. (1415هـ). زمزم والزمازمة. دار القبلة للثقافة الإسلامية.
- مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري (261/206هـ) ، ت:محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة عيسى الحلبي 1955م .
- المكي، العز بن فهد بن عبد العزيز بن عمر. (2005م). بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى. مجموعة محققين، دار القاهرة.
- ابن منظور، جمال الدين أحمد بن مكرم. (د.ت). لسان العرب. دار ضياء.
- نواب، عواطف. (1417هـ). الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين. مكتبة الملك فهد الوطنية.
- ابن هشام، السيرة النبوية. صححه: ناجي سويد، شركة الأرقم.

Abstract:

The research talks about the role of Zamzam in the Meccan society in the Islamic era through the coexistence of the people of Mecca with this immortal Islamic influence and its use for their benefit In all aspects of social, administrative, economic, religious and scientific life as well.

The research dealt with two main axes, first, the origin of Zamzam and its architecture, with mentioning its names and virtues, and secondly, the role of Zamzam in the Meccan society through the social, administrative, economic, religious and scientific aspects.

The research concluded with the most important results recommended. And Peace be upon him.

key words: Zamzam / Mecca/role/community